الأبعاد الفكرية لظاهرة الضعف اللغوي (التشخيص والمعالجة)

أ.م.د. جاسم محمد سلمان

الجامعة العراقية - كلية الآداب

مستخلص

تقوم فكرة هذا البحث على رصد التحولات الفكرية التي طرأت على الساحة العربية في العصر الحديث، ممثلة بدعوات صدرت عن بعض الدارسين المتربصين بالعربية ومحاولة إقناع المتلقين بالعامية بديلة عن الفصحى، ثم تبيان أثر ذلك على ظاهرة الضعف اللغوي التي سرت في جنح الليل إلى المتكلمين بالعربية، وكثير من أهلها عنها غافلون.

لذا يأتي هذا البحث مبيناً الصورة التي ظهرت عليها تلكم الدعوات وأشهر أنصارها في مصر والشام ودول أخرى، ومن شدَّ على أيديهم من المستشرقين وأخطر أنظارها بدءًا من الهبوط بلغة الكتابة من الفصحى إلى العامية كونها لغة التخاطب اليومي وتلك الفصحى المستقلة في زعمهم، وإحلال الحروف اللاتينية بدل العربية، ثم توجيه أنظار المعنيين إلى إهمال الإعراب، وصولًا إلى فساد الأذواق بتبني الشعر العامي والإنصراف عن الفصيح، من غير الاغفال عن الردود التي قدمها دارسون للتصدي للفائت من الدعوات.

ويكشف هذا الاستقراء الأثر على لغة أهل العربية ويتحرى استظهار معالجة حصيفة لتدارك الضعف الحاصل كتقديم واقع تعليمي نطقًا وتصنيفًا، والاستزادة من الدورات التعليمية المختصة بالفصحى، وبث برامج إعلامية وسياسية وفنية واقتصادية بالفصحى، وإثراء المكتبة العربية بالهادف من الكتب لا سيما لفئة الأطفال.

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين وأفضل الصلاةِ وأتم التسليم على سيدنا محمد أفصح من نطق بالضاد، فكان للبشرية خيرُ معلِّمٍ وهاد، وعلى آل بيته الأطهار وصحابته الأخيار ومن سار على هديهم ونهجهم الى يوم الحشر والمعاد وبعد:

فلا يخفى على أحدٍ من المعنيين بشأن اللغات ما للغة العربية من أثر كبير في ثقافات الشعوب إبّان العصور الذهبية لحكم المسلمين يوم كانت البشرية تنعم بعدالة هذا الدين ورحمته.

وفي الحقيقة فإنّ الامم تنظر الى لغتها بوصفها شعارها الحامل لترثاها والمعبِّر عنها، لذا فهي تدافع عنها وتحرص عليها وعلى الحفاظ عليها، ولهذا نرى غيرة الأمم على لغاتها والذود عنها لشعورها بأنها تدافع عن هويتها وشعارها، يقول مصطفى صادق الرافعي: " وما ذُلّت لغة شعبٍ إلاّ ذُلَّ، ولا انحطّت إلاّ كان أمرُه في ذهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضاً على الأمة المستعمرة، ويَركبُهم بها، ويُشعرهم عظمته فيها، ويستلحِقُهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثة في عملٍ واحدٍ، أمّا الأول: فحبْس لغتهم في لغته سجناً مؤبداً، وأمّا الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محواً ونسياناً، وأمّا الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرُهم من بعدها لأمرهِ تبعٌ"(١).

لذا سأتناول في هذا البحث الحديث عن جانب مهم من جوانب الصراع الفكري ومظاهره التي تمسك بها دعاة هذا الصراع والمنادون به متهمين لغتنا الفصحى بأنها عاجزة عن تلبية متطلبات التطور الحضاري والفكري الذي وصلت اليه الأمم والشعوب، مشككين بعربيتنا، أصبحت ظاهرة الضعف اللغوي معولاً للهدم، والقوس الذي تُرمى به سِهام المتربصين بعربيتنا، ومعرّجاً على مفهوم الصراع ومسوغاته، ثم التعريف بمدلول الضعف اللغوي، وبدايات هذه الظاهرة، ثم مظاهر هذه الظاهرة والأسباب والمعالجات لكل مظهر من هذه المظاهر.

اله اسأل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون وقفة جادة للدفاع عن هويتنا العربية الاسلامية ألا وهي لغتنا العربية لغة الضاد فالحافظة عليها ورعايتها استبقاءاً لقوة وحياة الأمة العربية والاسلامية بين الأمم.

والله الموفق والهادي الى سواء السبيل

التمهيد

مفهوم الصراع ومسوغاته

لا يخفى على أحدٍ من الناظرين الى الصراع بين الأمم أنَّ استهداف الأمم القوية للأمم الضعيفة لا يقتصر على جانب واحدٍ من جوانب الصراع، بل يتجاوز الأمر الى أكثر من جانب فاللغات تُستهدف من قِبل الأعداء كما تُستهدف الأرواح والقيم والأخلاق والأديان...الخ.

وتمثل قدرة الأمة القوية على إضعاف لغة أمة ضعيفة أو القضاء عليها من أثوى علامات انتصارها عليها، لذا نرى غيرة الأمم على لغاتها وهي تذود عنها وتدافع لأنها تمثل هويها وشعارها.

واللغة العربية اختصت بخاصية لا يشاركها فيها غيرها من اللغات تتمثل بإتصال ماضيها بحاضرها اتصالاً قوياً، فأيُّ عربي يستطيع أن يقرأ ما كتب قبل ١٥ قرناً ويفهم أغلبه، إذ لم يجرِ عليها ما جرى على اللغات الأخرى من التغيير المستمر الذي يبدّل اللغة ونظامها وهذه حال أكثر اللغات العالمية، أمّا لغتنا العربية الفصيحة فهي ثابتة في أُصولها ونظامها وهذا الذي يجعلنا نقرأ كلاماً قيل قبل الاسلام ونفهمه، لكنها من جهة أخرى متطورة في الفاظها ومعانيها، فمنذ القِدم وحتى يومنا هذا وألفاظ اللغة تتطور، فتتولد معاني وألفاظ جديدة لتلبي حاجة المتكلمين بها، وتكتسب ألفاظٌ قديمة معاني جديدة وهذا أمر أكثر من دليل عليه لأثباته، ولم يكن المسلمون إبّان حكمهم العالم بالمضطهدين للحريات والشعوب، وإنما كانت غايتهم إعلاء كلمة الله ونشر تعاليم الاسلام السمحة، ومن هنا لم يُذكر عن المسلمين أنهم عادوا لغةً أو حظروا ثقافةً ما دامت لا تخالف شريعة الله تعالى.

فقد جاء الاسلام واللغة العربية على درجة رفيعة من الفصاحة والبيان في الشعر والنثر غير أنها في حدود قبلية ضيقة ثم اجتباها الله لتكون لغة الاسلام ولسان القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [٢]، وقد بلغ رسوله الأمين رسالة ربّه بهذه اللغة المختارة وبذلك تجاوزت اللغة العربية حدود القبيلة والقوم وارتبطت بالاسلام فكانت لغة عقيدته وشريعته وخطابه الى جميع البشر، على الرغم من عدم فرض اللغة العربية على الشعوب الاسلامية ذات

اللغات الأخرى إلاّ أنّها انتشرت بانتشار الاسلام في مصر والشام والعراق وما وراء النهر من بلاد فارس وأنحاء واسعة من القارة الاسيوية والافريقية.

وكذلك تأثر اللغات الاوربية بها منذ بداية الصراع البيزنطي الاسلامي في الشرق، ثم القوطي الاسباني مع الاسلام في اسبانيا وما اسهمت به الحروب الصليبية على مدى قرون من الزمان وعبر الاتصال الحضاري بين الحضارة الاسلامية والغرب في الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا وبلدان البلقان وغيرها.

وقد كتب كثير من الباحثين المحدثين من المستشرقين وغيرهم عن أثر اللغة العربية في اللغات التي دخلت معها في صراع لغوي وأنجزوا احصائيات علمية مقارنة للمفردات العربية المبثوثة في تلك اللغات وأظهروا نسبة تأثيرها، وعلى سبيل التمثيل قال أحدهم: (درست أثر اللغة العربية في اللغات الشرقية وأحصيت نسبتها وهي في الفارسية ٦٧ و٦٠ %، وفي التركية ٣٠ و٦٥ %، وفي الأردية ٩٥ و٤١%، وفي التاجيكية ٣٩ و٤٦%، وفي الافغانية٩٩و٥٦%. وعلى هذا المنوال فقد لاحظ الباحثون في اللغات المقارنة تأثير اللغة العربية العميق في سائر اللغات المنتشرة في العالم الاسلامي وعللوا ذلك بتعليلات كثيرة متعددة يأتي في مقدمتها الدين ومهما كانت التعليلات فإن اللغة العربية حققت هذا الاعجاز؛ لأنها في المقام الأول حملت آيات القرآن الكريم المعجز الى آفاق المعمورة ولاقت الحفاوة والترحيب ومن خلال هذا نجد أنَّ الاعداء هم الذين بدأوا يحوكون الدسائس والمكائد للغة العربية ويحاولون جهد إمكانهم زعزعتها عن مكانتها الأولى بين لغات شعوب العالم.

وهكذا فإنّ لغتنا العربية الفصحى تخوض في زماننا اليوم صراعاً في اتجاهين مّا الأول: فهو صراع طبيعي أوجدته ظروف طبيعية في حياة لغات الشعوب، وهو صراع قديم منذ أن اقتسمت البشرية بقاع الأرض وأصبحت فوقها شعوباً وقبائل مختلفة الأجناس والألوان الألسنة وقد قامت دراسات واسعة حول هذا النوع من الصراع اللغوي حاول المفكرون واللغويون معرفة أسبابه وعوامله ونتائجه في حياة الشعوب والأمم، وبيان آثاره الفكرية والاجتماعية والنفسية في حياة الأمم.

أمّا الصراع الثاني: فهو صراع مصطنع أُرصدت له الجهود، وسُخرت له كل الامكانيات، صراع سببه الحقد الدفين الذي تأجج لهيبه في صدور المستعمرين، وتحول هذا

الصراع المدبّر الى حرب ضروس ظهرت للعيان في بداية القرن العشرين على يد المستشرقين الحاقدين الذين خاصوها ضد لغتنا الفصحى في ثلاثة اتجاهات وثلاثة محاور هي: قواعد اللغة العربية، والخط العربي، واللغة العامية.

غير أنَّ لغتنا العربية الفصحى كانت أقوى من أن ينال منها هؤلاء المستشرقين ومن سار في ركبهم، وأكبر من أن تتخاذل أمام مكائد الغدر، فاستطاعت بفضل ما تمتعت له من رصيد روحي تمثل بالقرآن الكريم، بالاضافة الى عوامل التطور والثبات في ألفاظها وتراكيبها وأساليبها، الى جانب رصيدها الكبير من حيث عدد المتكلمين بها والمؤثرين إيّاها حتى على لغاتهم الاصلية، استطاعت بفضل ذلك كله أن تقف بوجه كل التحديات وتتصدى لكل الهجمات وتحقق النص تلو النصر، وتثبت عبر هذا الصراع الفكري وكل صراع تخوضه جدارتها في توجيه اللسان الانساني وسيطرتها على أساليب المنطق البشري[٣].

وهكذا فالسبب واضح في حقيقة هذا الصراع الفكري الثقافي وهو أنَّ اللغة العربية تمثل لغة الاسلام، فبها نزلت الاحكام، وحفظها القرآن الكريم، فكانت لغة الشريعة التي تحكم البلاد، وهذا لا يعني أنَّ الاسلام حارب اللغات الأخرى الخاصة بالشعوب التي تحت قيادته وسيطرته بدليل أنَّ الاسلام حكم ثلثي المعمورة وما زالت لغات هذه الشعوب حية الى اليوم.

فالمسوغ الأول لمحاربة اللغة العربية من الاعداء والحاقدين هو مسوغ ديني ثم تحول هذا المسوغ الى مسوغ فكري سياسي عندما سيطرت دول أخرى على قيادة العلام، وهذا يعكس لنا مدى رذالة هذه الدول موازنة مع حكم الاسلام لها.

فالتاريخ يذكر لنا كيف حُرِّمت اللغة العربية في الاندلس عندما سيطر عليها الصليبيون، ويذكر لنا أيضاً ما فعله الفرنسيون في الجزائر والمغرب العربي في العصر الحديث عندما أجبروا شعوب المسلمين على التحدث اللغة الفرنسية وجعلوها مادة مهمة في المدارس.

نخلص مما تقدم ان مسوغات الصراع بدأت دينية ثم أُضيف عليها فيما بعد الصراع الفكري والسياسي فهي مسوغات وأسباب دينية سياسية وفكرية.

المطلب الأول

مفهوم الضعف اللغوي وتاريخ الظاهرة (قديماً وحديثاً)

مفهوم الضعف اللغوي: يُمكن لنا تعريف ظاهرة الضعف اللغوي باها: عدم قدرة المتعلم على القراءة والكتابة بشكل سليم، وعدم قدرته على التعبير عن آرائه وحاجاته بلغة سليمة.

وهذا المفهوم والمدلول هو ما تعارف عليه أهل المناهج التعليمية فدلالته هنا عُرفية وليست معجمية ذاك أنَّ الضعف في اللغة ضد القوة كما أشار اليه ابن منظور في لسانه(٤)، وأحسبُ هنا ليس المراد به ضد القوة بل يراد به ضد الاتقان إذا ما أُطلق على هذه الظاهرة.

تاريخ الظاهرة قديماً وحديثاً: لم تكن ظاهرة الضعف اللغوي وليدة زماننا هذا وبعضاً من معطياته، بل هي قديمة لها دلالات واشارات ترجع بداياتها مع بداية التأليف اللغوي في نهاية القرن الاول الهجري وبداية القرن الثاني إذ تنبه علماؤنا الفضلاء الاجلاء الى وجود اللحن والخلل والفساد في لسان الناس فوضعوا المؤلفات والمصنفات التي تضبط قواعد الكلام وتحفظها، فأوليات هذه الظاهرة مع أوليات وضع أصول علمي النحو والصرف، إذ لولا الخلل والزلل في استعمال اللغة لما وضعت هذه العلوم أصلاً، وما كتب لحن العامة وما تلحن فيه العامة للكسائي والأصمعي وابي زيد الانصاري وغيرها من العنوانات يطول المقام لذكرها إلاّ دليلاً وإشارة لوجود هذه الظاهرة وعليه فإنَّ الشكوى من تدني مستوى الأداء اللغوي للمتحدثين باللغة العربية قديمة وليست بالحديثة كما أسلفنا.

فقد لحظ ابن الجوزي (٥١٠هـ) شيوع اللحن في عصره مما دفعه الى تأليف كتابه (تقويم اللسان) إذ قال في مقدمته: " إني رأيتُ كثيراً من المنتسبين الى العلم يتكلمون بكلام العوام المرذول جرياً على العادة، وبُعداً عن علم العربية، فعزمت على تأليف كتابي هذا"(٥).

كما أنَّ ما لحظه (ابن منظور ٧١١هـ) من شيوع اللحن في العربية كان سبباً في تأليف كتابه ومعجمه (لسان العرب) إذ يقول في مقدمته: " وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من إختلاف الألسنة والألوان حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يُعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمنٍ أهله بغير لغته يفتخرون"(٦).

ومع كل تلك الجهود العظيمة التي بذلها علماؤنا الفضلاء الأجلاء من المتقدمين لضبط اللسان وانقاذ الوضع المتردي للغة العربية في أوساط الناس إلاّ أنَّ هذه الظاهرة تزداد يوماً بعد يوم.

ومن الذين التفتوا وتنبوا الى هذه الظاهرة في الثلاثينيات من القرن الماضي الدكتور طه حسين في كتابه (الأدب الجاهلي) إذ رآى " أن لغتنا العربية لا تدرس في مدارسنا، وإنما يدرس فيها شيءٌ غريب لا صلة بينه وبين الحياة، ولا صلة بينه وبين عقل التلميذ وشعوره وعاطفته"(٧).

وهذه الدكتورة عائشة بنت الشاطئ في الستينات تصف حال المتعلمين في زمانها فتقول: " الظاهرة الخطيرة لأزمنتنا اللغوية هي أنَّ الطالب كلما سار خطوة في تعمل اللغة العربية زاد جهلاً بها ونفوراً منها وصدوداً عنها وقد يمضي في الطريق التعليمي الى آخر الشوط فيتخرج في الجامعة وهو لا يستطيع أنْ يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه، بل قد يتخصص في دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها، ويعييه مع ذلك أنْ يملك هذه اللغة التي هي لسان قوميته ومادة تخصصه"(٨).

وقول الدكتور محمود محمد الطناحي (رحمه الله): " لم يعد خافياً على أحدٍ ذلك التدني الذي وصل اليه خريجو أقسام اللغة العربية في جامعاتنا خلال العقود الأخيرة...."(٩).

واليوم لا تزال آثار هذه الظاهرة واضحةً للعيان، فكثرة الأخطاء اللغوية التي يرتكبها الطلبة على مختلف مراحلهم الدراسية وفي مجال الاعلام بوسائلها المتعددة، مما يجعل الحال يسوء يوماً بعد يوم وتزداد الحاجة الى معالجة هذه الظاهرة على مختلف المستويات.

المطلب الثاني

أسباب ظاهرة الضعف اللغوي

أصبحت ظاهرة الضعف اللغوي تُثير قلقاً عند جميع المعنيين بشؤون التربية والتعليم، وذلك لانها تؤدي الى تدين المستوى الثقافي عند المتعلمين والمتلقين للمواد الدراسية جميعها، حيث أثبتت كثير من الدراسات والتجارب أنَّ اتقان الطلبة للغة يساعدهم على تحصيل المعارف في المواد التي تعتمد في مجملها على الفهم القرائي، فالطالب المتمكن من اللغة يفهم ما يقرأ

بسرعة، وكلما زاد تمكنه من القراءة والكتابة قلَّ الجهد الذي يبذله فيهما ليوفره لفهم ما يقرأ ويكتب.

وفي الحقيقة فانَّ الضعف موجود في المهارات اللغوية الأربع (الاستماع) و (التحدث) و (القراءة) و(الكتابة). ففي الاستماع ترجع أسباب الضعف الى عوامل تكمن في الكلام نفسه، كالتفكك في التركيب، أو عدم قدرة المستمع ذاته على الاستماع الجيد أو التفسير الخاطئ والغامض للكامات أو فهمها في غير سياقها المناسب.

أمّا التحدّث فيرجع الضعف منه إلى عدم القدرة على استعمال الكلمات المعبرَّة عن الافكار الذاتية أو توصيل الفكرة والحالة النفسية التي يعبر عنها.

وأما القراءة فيرجع الضعف فيها الى عوامل متعددة منها عدم مناسبة الكتب المنهجية المقررة، أو طرق التدريس غير المناسبة، أو لعوامل اقتصادية واجتماعية تتمثل بتوافر أو عدم توافر الامكانيات لشراء الكتب والمجلات....

وقد ترجع أسباب الضعف في الكتابة الى ضعف السمع أو البصر وعدم قوة العضلات الدقيقة لليد أو الأصابع، وقلة التدريبات الكتابية وفقدان أساسيات تعلمها في المرحلة التأسيسية، وهذا ينطبق على كل مهارات اللغة.

وبالاضافة الى ما سبق ذكره فإنَّ هناك أسباباً متعددة لظاهرة الضعف اللغوي فيها:

أولاً: استخدام اللهجة العامية في الحياة اليومية وعدم تشجيع الاجيال عن استخدام اللغة الفصحى، ولهذا اللهجة مظاهر أدت الى الضعف اللغوي منها:

أ – افتقار اللهجة العامية الى ما لا يُحصل من المصطلحات العلمية والمفردات المستحدثة ولا سيما العصرية التي تمثل مستلزمات التطور الحضاري

ب – ندرة المترادفات في اللهجة العامية واقتصار المعنى في لفظٍ واحدٍ يفي بالغرض المطلوب، بينما تزخر اللغة الفصحى بالمترادفات التي لا حصر لها في لغة العرب.

جـــ – قلة المدونات والمنشورات باللهجة العامية سواء المخطوطة أو المطبوعة وامتلاء المكتبات بما يقتصر على اللغة الفصحى.

د – عدم وجود معجمات وقواميس تفي بالغرض المطلوب في اللهجة العامية إلاّ ما ندر ولحاجات خاصة تقتضيها الضرورة، بينما معجمات وقواميس الفصحى تغطي مساحة واسعة من المكتبات.

هـ – قصر استخدام اللغة الفصحى على المناسبات والمراسلات الرسمية.

و – استخدام كثير من المفكرين والادباء للهجات العامية في نتاجاتهم الادبية والفكرية.

ثانياً: اعتقاد البعض أن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب المعاني والمصطلحات العلمية الحديثة.

ثالثاً: ضعف المناهج الدراسية وافتقارها الى عنصر التشويق والارتباط بواقع الطلبة وحياتهم ومتطلباتهم.

رابعاً: بعض الباحثين أرجع أسباب هذه الظاهرة الى الأستاذ نفسه وتأهليه وطريقة تدريسه وأسلوب تعليمه.

خامساً: من أهم أسباب ظاهرة الضعف اللغوي هو المتعلم والمتلقي نفسه وعدم جديته ورغبته في إدراك المهارات الأساسية في اللغة العربية.

سادساً: من الأسباب أيضاً عدم وجود الفرص الكافية لتدريب الطلبة على الكلام كالندوات والمحافل الادبية واللقاءات العلمية وغيرها.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد أورثت هذه الأسباب لغة ضعيفة باهتة على السنة أبنائها، كما أورثت المتحدثين والمتكلمين بها جملة من الأخطاء النحوية واللغوية والاملائية، ورداءة في الخط والكتابة، وركاكة وضعف في الصياغة ومشكلات في القراءة الجهرية وقصوراً في الفهم والاستيعاب، فضعف الطلبة والمتلقين لغوياً يعني قصوراً في التواصل العلمي والمعرفي مع مصادر المعرفة، وقصوراً في انتفاعهم بالرصيد العلمي والمعرفي الزاخر لامتنا والأمم الأخرى، وضعفاً في القدرة عن الاضافة الى هذا الرصيد، وفوق كل ذلك ضعفاً في ارتباطهم بدينهم الإسلامي وتراثهم العربي الاصيل وهذا هو السبب الرئيسي والمسوغ الأساس لمن يرسخون هذه الظاهرة ويغذونها فكرياً وفلسفياً واجتماعياً وسياسياً بل وحتى عسكرياً إذ يحاولن بشتى الوسائل والامكانيات طمس معالم لغتنا العربية الفصحى وطمس هويتنا الإسلامية.

المطلب الثالث

الوسائل والاليات للحد من ظاهرة الضعف اللغوي

من الواضح أن الأسباب التي أدت الى انتشار هذه الظاهرة بمجملها تعلق بمحاور العملية التعليمية وأركانها الاساسية الثلاثة (المتلقي – الأستاذ – المنهج).

لذا بات علينا أن نعمل جاهدين للحد من هذه الظاهرة وان نضع الحلول المناسبة لكل ركن من هذه الأركان الثلاثة فأمّا المتلقي فيمكن العمل على تحقيق الوسائل الأتية:

أ – إثراء الثروة اللغوية بإكسابه المفردات والالفاظ الجديدة وتوسيع ملكته اللغوية.

ب – الميل الى القراءة بحيث يقبل المتلقي على القراءة الحرة والافادة مما يقرأ.

جـ – تدريب المتلقي على التعبير الشفهي والكتابي بطريقة صحيحة.

د – توسيع خبرات المتلقي العامة عن طريق الكتب الومجلات والصحف والقصص والشعر.

هـ – تأكيد الصلة وتعزيزها بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والاعتزاز بما خلفه أجدادنا من تراث فكري وأدبي وعلمي ولغوي.

أمّا الأستاذ فيتوجب علينا أن نحقق ونساهم في:

أ – إعداده إعداداً تربوياً أكاديمياً سليماً كافياً لأساتذة ومعلمي اللغة العربية.

ب – التنويع في طرائق التدريس وأساليبها لمعرفة الفروق الفردية لدى المتلقين.

ج – العناية والاهتمام باستخدام مصادر التعليم والثقافة المتنوعة.

د – استخدام المروية في طرائق التدريس واعتماد المعايير والوسائل التي ترتقي بمستويات الثقافة اللغوية لدى الاساتذة.

هـ – اتقان مهارة إثارة الأسئلة وتنميتها عند أعضاء هيئة التدريس.

و – معرفة المادة الدراسية بشكل متقن والاحاطة بكل ما من شأنه إثراء هذه المادة.

ز – إظهار الاتجاهات الودية نحو الطلبة وخلق جو من التعامل الأبوي ومدَّ جسور المودة بين الأستاذ والمتلقي.

ط – إتقان مهارات الاتصال والحوار مع المتعلمين.

أمّا المنهج فتتمثل الوسائل والاليات التي تساهم في الارتقاء بما يأتي:

أ – الاهتمام والعناية بالمناهج وتطبيق معطيات العصر عليها بأساليب سهلة محببة للطالب.

ب – الإفادة من الاسلوب التكاملي في تأليف اكتب المنهجية المقررة إذ لا تقتصر على المعلومة مجردة من معانيها ودلالتها الفكرية.

جـ– العمل على جعل محتوى المناهج قائماً على مفهوم التكامل بين المناهج التعليمية ومصادر التأثير الاخرى في وسائل الاعلام.

د – التجريد المستمر والمرونة في المناهج والملائمة الدائمة بينها وبين متطلبات التطور المعرفي والاجتماعي والفكري.

هـ – ربط المناهج بنظم المعلومات والتقنيات الحاسوبية وطرق معالجتها ودعم استخدام الشبكات المعلوماتية العالمية.

وإذا أردنا أن نتجاوز هذه الأزمة وهذه الظاهرة وما تعكسه من واقع لغوي غير مشرّق نعيشه في بلداننا، فانني أذكر بعض التوصيات والمقترحات علّها تكون صرخة رادعة لكل من حاول المساس بهذه اللغة:

أولاً: الابتعاد قدر الامكان عن استعمال اللغات العامية الدارجة داخل قاعات الدرس عموماً وفي مؤسساتنا التعليمية من جامعات ومعاهد ودارس، وتوظيف اللغة العربية الفصحى في جميع المواد التي لها علاقة بها.

ثانياً: إعطاء الاساتذة والطلبة فرصاً كبيرة للتعبير عن أنفسهم وأفكارهم بلغة الضاد ومساعدتهم على ذلك بشتى الوسائل.

ثالثاً: الحرص على الاستعمال السليم اللغة العربية في وسائل الاعلام كافة من اذاعات وفضائيات وتركيزها على اللغة في جميع برامجها دون استثناء كما يجب عليها تبني برامج تتوخى التعريف باللغة العربية.

رابعاً: الحرص على إصلاح مناهج تعليم اللغة العربية وطرائق التدريس فيها ولجميع المراحل بما يحفظ لها أصالتها ونقاءها، ويُسر في الوقت نفسه فهما وتذوقها واستعالمها.

خامساً: ضرورة العنايةُ والاهتمام بالخطابة والتعبير وتفعيل مبدأ الأنشطة الطلابية وتدريبهم على ممارسة اللغة العربية بشكل جيد.

سادساً: ضرورة تضمين المناهج الدراسية حفظ أجزاء من القرآن الكريم وقصائد الشعر العربي الرصينة بمراحل الدراسة المختلفة، وجعل صحة اللسان وسلامته مؤشراً اساسياً في تقويم الطلبة وعنصراً مهماً من عناصر النجاح.

سابعاً: غرس الاعتزاز باللغة العربية في نفوس أبنائها بوصفها لغة الدين الإسلامي.

ثامناً: حثّ الهيئات والمؤسسات العامة والخاصة على تعزيز استخدام اللغة العربية وجعلها الأساس في التعامل والتخاطب والاعلان.

تاسعاً: تنظيم المحاضرات والندوات وحلقات البحث للنهوض باللغة العربية.

وأخيراً فإنّه وإن تعددت الأسباب ومقترحات العلاج التي ذكرت والتي لم تذكر فإنَّ اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ورابطة العرب والمسلمين في كل زمان ومكان فالمحافظة عليها ورعايتها استبقاءً القوة وحياة الامة العربية والإسلامية بين الأمم، فلا محيص عن إتقانها تحدثاً وقراءةً وكتابة واستماعاً، وليساهم كل منا على قدر استطاعته استاذاً أو ولي أمر أو طالب علم أو مؤسسات وهيئات وحكومات في إزالة الأسباب التي تؤدي الى ضعفها والهبوط بمستواها عن فصاحتها وبلاغتها وسلامة تراكيبها.

المطلب الرابع

اللغة العربية وعناصر القوة فيها.

تعد اللغة – اي لغة – وعاء الفكر والثقافة لكل من يتحدث بها فاللغة لم تكن مجرد وسيلة تخاطب وحسب، بل هي في كل عنصر تمثل الهوية والسمة المميزة، وتقف جنباً الى جنب في هذا الامر مع الدين الذي يقدم معتقداته وتشريعاته بهذه اللغة، وليس هذا الأمر خاص بلغة دون لغة، بل أنه يشبه القانون في وعي كل جماعة لغوية وثقافية تمارس طقوس حياتها عن طريق لغتها ولكنها مع الغلة العربية أِد وضوحاً وذلك لاعتبارات كثيرة أهمها القانون التطوري الداخلي الذي يسكن فيها ولعل من مظاهر هذا الوضوح كثرة المعجمات الغلوية العربية وتشعب موادها اللغوية وتكاثر صيغها الصرفية، واعتماد قانون الزيادة الذي يحمل في تبعاته المعاني المختلفة التي قد تصل الى حد النقيض مع المادة الاصلية ومن هنا يمكن لنا ان نفهم كلام ابن جني في كتابه (الخصائص) معلقاً على التغيرات التي تصيب معنى اللفظ بما يصيبه من تغيير صوتي بعبارة (تعاقب الالفاظ لتعاقب المعاني) معبّراً عن ذلك بقوله: " هذا غورٌ من العربية لا

يُنتصف منه ولا يكاد يُحاط به، وأكثر كلام العرب عليه وإن كان غُفلاً مسهواً عنه"، وأكد المعاصرون هذا القانون اللغوي إذ يرون ان الزائد في اللغة سواءاً في النحو أم الصرف ليس وجوده وزيادته كعدمه وإنما هو الزائد مجرد اصلاح نحوي أو صرفي له وظيفة نحوية أو صرفية وهذه حقيقة في الدرس اللغوي.

وتكتسب اللغة العربية باعتبارها وعاء فكر الاسلام أهمية خاصة وهذه الأهمية اهمية سياسية بالدرجة الاولى على الصعيدين الداخلي والخارجي، فقد كانت هذه الاغة منذ تشكيل الكيان الاسلامي السياسي الأول في المدينة المنورة وحتى آخر دولة اسلامية (الدولة العثمانية) اللغة الرسمية للدولة ولم تتراجع عن مكانتها تلك إلاّ في أواخر الحكم التركي بدعاوى قومية مشبوهة، عندما انتشرت فكرة التتريك بين العرب وحوربت العربية والعلماء العرب، وقد شكل هذا الأمر بداية حرب لا تخمد وهجوم شرس على هذه اللغة في ظل حركة (تركيا الفتاة) وقد أخذت الحرب على اللغة اشكالاً متعددة بعد ذلك، ولم تكن هذه الحرب ليشتعل أوارها لولا اولئك الحكام الضعفاء.

ولم يكن هذا بطبيعة الحال اول الخلل، ولكن ما عانته اللغة من إهمال كان قبل ذلك عندما تولى الحكم من لا يعرف العربية وقيمتها فأهمل امرها وذلك منذ القرن السادس الهجري وخسر المسلمون جرّاء ذلك خسارتين على اقل تقدير، الأول: تجميد حركة اللغة والقضاء على تطورها، والثاني: الخسارة التشريعية والفقهية الجديدة التي تبث الحياة في الأمة وتجعلها تواكب مسيرتها الحضارية كما بدأتها بالقوة.

ويمكن القول: إن سبب الانحطاط الذي تحياه الأمة اليوم يرجع الى شيء واحد هو الضعف الشديد الذي طرأ على الاذهان في فهم الاسلام.

لذا كانت الدعوة الى الاهتمام باللغة العربية وإحيائها، وبث الوعي اللغوي بين الافراد العاملين، وهي دعوات ذات مغزى كبير ومهم على طريق التقدير في تحقيق الاهداف الموضوعة لفهم النصوص التشريعية القرآنية والنبوية بوصفها مصدراً تشريعياً، وكان لازماً ان تُفهم من جهة لغتها وأساليبها ومقاصد معانيها والغوص في مكنوناتها حتى تتمكن من فهم صحيح تشريع للإسلام في لاظل تطورات جديدة بحاجة ملحة الى حلول مناسبة.

وفي الحقيقة ولكل ما ذُكر فإن اللغة العربية تمتلك عناصر قوة لا تستطيع أي لغة ان تصل الى ما وصلت لغتنا العربية وإنَّ الإحاطة بمنزلة اللغة العربية ومميزاتها الاساسية التي عملت على قوتها وانتشارها من الصعوبات بمكان، ولكني سأذكر جانباً من هذه العناصر:

أولاً: كون اللغة العربية ارتبطت بشعائر الاسلام وعبادته وغدت جزءاً اساسياً من لغة المسلم اليومية وفي حياة الأمة الاسلامية لأنها ملازمة للفرائض الاسلامية فقد أوجب الاسلام أن تكون الصلاة وتلاوة القرآن وترتيله والآذان ومناسك الحج والدعاء وشعائر الدين باللغة العربية.

لكل هذا ارتقت منزلة العربية عند المسلمين وتفقه المختصون في دراسة العلوم العربية ووضع قواعدها في النحو والصرف والبيان والمعاني وبحور الشعر ورسم الحروف والخط وغيرها وألفوا فيها عدداً ضخماً من نفائس الكتب ومنهاج العرب وغيرهم، ونشطت لذلك بوجه خاص في زمن مبكر مدرستا البصرة والكوفة فظهر في الأولى مثلاً أول معجم لغوي وأول كتاب في اوزان الشعر وأشهر كتاب في النحو منذ أكثر من أثني عشر قرناً وهو معجم العين وكتاب العروض للخليل بن أحمد الفراهيدي البصري والكتاب لسيبويه.

ثانياً: حركة التعريب التي بدأت في خلافة عبد الملك بن مروان، إذ بدأ بسك العملة العربية، وكانت الدواوين والاعمال الرسمية تكتب باللغة الافريقية او الفارسية أو القبطية حسبما تقتضيه الظروف المحلية فغيّر ذلك كله الى اللغة العربية، ومما ساعد على ترسيخ اللغة العربية ونشرها حركة الترجمة التي بلغت اوجها في عهد المأمون.

ثالثاً: مميزات اللغة العربية الذاتية: فقد كسبت الصراع اللغوي الذي خاضته وهيي تلازم انتشار الاسلام بسبب عامل جوهري هو إنها لم تكن لغة مستعمر غاصب ولا سلطان مستغل، وإنما كانت لغة الفطرة، لغة القلب والعقل، لغة الغيب والشهادة، لغة العدل والرحمة والمساواة والحق، الى جانب ذلك فإنها امتازت بخصائص فريدة كتب عنها كثير من الباحثين في اللغات وكان من أهم ما ذكروه:

١ – إنّها لغة تامة الحروف، كاملة الألفاظ، لم ينقص منها شيء من الحروف فيشينها نقصانه، ولم يزد فيها شيء فيعيبها زيادته، وقد اعترف المستشرقون بهذه الخصيصة فقالوا: إنَّ من أغرب المشاهدات المدهشة أن تثبت تلك اللغة (يقصدون اللغة العربية) وتصل

درجة الكمال وسط الصحار؛ عند أُمة من الرُّحّل، تلكم اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظامها وانتظام مبانيها.

٢ – لا تقتصر اللغة العربية على كونها وسيلة تعبير، وإنما تتميز اللغة العربية بأنها ذات مضامين علمية ومنهجية وموضوعية وحضارية، وتميزت في ذلك كله بالبيان والسهولة والوضوح على الرغم مما قد يبدو من صعوبة تعلمها في باديء الأمر.

فاللغات من أعظم شعائر الامم لتي بها يتميزون، واللغة العربية شعار الأمة الاسلامية وهي من أهم وسائل تميزها وهو ما أدركته الأمة وسار تاريخها في ضوئها وبهدي منها، ولذلك قيل: إنَّ اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق، ولعل ثقة المستشرق الالماني (يوهان فوك) في اللغة العربية ويقينه بقوتها وبقائها ما يلفت النظر، وقد فقدنا الثقة بها، وفي الحقيقة فإنّ قوله هذا يُشعرنا بالخجل " إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية والاسلامية رمزاً لغوياً لوحدة عالم الاسلام في الثقافة والمدنية، لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه اقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المبسط واذا صدقت البوادر، ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الاسلامية(١٠).

والشيء الذي يُحمد للعربية أنها استطاعت ان تعبر عن ثقافات الشعوب بمختلف أجناسها وأطيافها، وهذا خير دليل على سعة العربية لذائقة الانسان وملائمتها للناس بمختلف أصنافهم فاللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ورابطة الغرب والمسلمين وحياة الامة العربية والاسلامية بين الامم.

المطلب الخامس

الخط العربي وإدعاء مشكلاته

لا يخفى على الجميع من المعنيين بتاريخ اللغات ونشأتها تاريخ الخط العربي الموغل بالقدم، تاريخ عريق يمثل صدى الاستقرار في الكتابة والنظام الإملائي بما يزيد على قرن من الزمان.

وقد ساد هذا الخط دول العالم إبام حكم المسلمين، وبه كتبت العلوم والفنون والثقافات وقد أدى رسالته وما يزال على أتم وجه وبيان.

غير أن هذا الحرف العربي في نظر خصوم لغتنا العربية يمثل هدفاً مهماً لذا نراهم يصوبون سهامهم ويصبون حقدهم وكيدهم تجاهه، فدعا بعضهم الى التخلي عن الحرف العربي الى الحرف اللاتيني كبديل جديد يتناسب مع متطلبات عصرنا الحاضر واتهموا الخط العربي بالصعوبة والتعقيد في حين وصفوا الحرف اللاتيني بالسهولة والوضوح، ومن الذين نادوا بالتخلي عن الحرف العربي واتخاذ الحرف اللاتيني بديلاً عنه الدكتور (أنيس فريحة) استاذ اللغة العربية في الجامعة الامريكية حيث أكدَّ هذه الدعوة في كتابة (الخط العربي نشأته ومشكلته) فقال فيه: " إنَّ الحرف اللاتيني جميل، متناسب الاشكال متباعدها، مطوّع، تكثر فيه الحروف المصوّته المستلقة، وحرفٌ شائعٌ معروف في العالم، وطباعته ميسورة "[١١]، ويعلّق على هذا القول الدكتور (نذير محمد مكتبي) في كتابه (الفصحى في مواجهة التحديات) إن مثل هذه الاقوال والدعوات الجائرة في حق الحرف العربي من الممكن ان تكون خفيفة الوطء على نفس العربي الغيور على لغته إذا ما صدرت من عدوٍّ ليس له أية صلة بالعربية، أمّا أن يتبناها ويدعمها ويدعو إليها عربٌ يقرُ بانتمامه إلى أمة العرب فإن وقع ذلك في النفس أشد وأنكى.

والغريب في الأمر أن بعض المنصفين من الغربيين رفضوا أي عدوان أو تجاوز يتجه نحو الحرف العربي وعدّوا ذلك جريمة لا تغتر، وكان ردّهم على خصوم يجب عليهم أن يخوضوا في الكلام عن الحروف العربية وتبديلها بحروف لاتينية؛ لأنَّ لغتهم نفسها في حاجة شديدة الى الاصلاح "[١٢].

وهكذا فقد أقرَّ الامريكان بانّ لغتهم تحتاج الى إصلاح بمعنى أنَّ الحرف اللاتيني عاجز عن اصلاح غيره لحاجته الى من يصلحه، ونظرة سريعة في الحرف العربي والحرف اللاتيني نحو أنّ ما أتهم به الحرف العربي حقيقة هو عينه موجود في الخط والحرف اللاتيني فالتعقيد والغموض همامه كان الحرف اللاتيني لا العربي.

نقول:إنَّ كل أمرٍ من تواضع البشر لا يرتقي الى درجة الاتقان والكمال ولكن حسنه يتفاوت وجودته تتقارب، ونحن نُقرُّ بوجود بعض الأمور في الحرف والخط العربي يمثلها بعضهم على أنها مشكلات فمن ذلك ان البعض يجعل كتابة الهمزة ورسمها مشكلة، وعدم ذكر

وكتابة بعض الحروف الملفوظة في الرسم الاملائي مشكلة فمثلاً كلمة (ذلك وهذا) لماذا لا تكتب (ذالك، وهاكذا) وغير ذلك من الأمثلة التي لا تكاد تتعدى أصابع اليد الواحدة.

والحقيقة إنَّ هذه الامر المسيطر عليها نقلاً وعقلاً بقوانين يسيرة لا يمكن أن تمثل مشكلة في الخط العربي اذا ما وازناها بالمشكلات التي تذكر على ما يدعوه اليه من الخطوط اللاتينية فالانكليزية أيضاً فيها حرف (k) لا يلفظ إذا وقع بعده (N) مثل لفظ (Know)، وكذلك حرف (h) في لفظة (school) لا يلفظ وغيرها من مشكلات الصوت والبنية.

هذه الأمور جعلت بعض الى قدين يقومون الدنيا على أنّ في الخط العربي مشكلات داعين الى استبداله بالحرف اللاتيني وان هذه المشكلات لا يمكن تداركها فهل صدقوا في هذا ؟ نقول: إنَّ الدافع الرئيسي والسبب الأساسي لمحاربة الخط العربي هو نفسه الدافع الرئيسي لمحاربة اللغة العربية وهو الدافع الديني والسياسي؛ لان القضاء عن لغة شعب وخط قضاء على هوية الشعب ومن ثم القضاء على هوية الأمة الإسلامية.

ولا بأس من ذكر الخصائص التي امتاز بها الحرف العربي وتفرّد بها دون غيره من حروف اللسان العالمي وقد أشار اليها الدكتور (نذير محمد الكتبي)[١٣] ومنها:

أولاً: أنّ الحرف العربي يمتاز في حالة تركيب الكلمة أو الجملة بالايجاز المحكم. فقد تتألف الكلمة العربية من ثلاثة أحرف بينما يقابلها في اللغة الفرنسية أو الانكليزية تتألف من خمسة الى ستة أحرف، وفي هذا المقام يقول الدكتور يعقوب بكر: " إذا ترجمنا الى العربية كلاماً مكتوباً بإحدى اللغات الاوربية كانت الترجمة العربية أقل من الأصل بنحو الخمس أو أكثر"[١٤].

فاذا كانت حاجة عصرنا الحاضر تستدعي الايجاز والدقة في التعبير عن المعاني لذا يتوجب على إنسان هذا العصر ان يلجأ الى أكثر اللغات اختصاراً وايجازاً وادقها تعبيراً وفي الحقيقة فكان اللغة العربية هي خير من يصلح لهذا الغرض وقواعد الحذف والتقدير التي تتمتع بها اللغة العربية أكبر دليل عن هذا.

ثانياً: الحرف العربي يمتاز باستيعابه مختلف أوضاع النطق اللساني، ففي الوقت الذي يسقط فيه حرف الضاد من بعض اللغات الانسانية نجده يستقر في اللسان العربي حتى أنَّ العربية وصفت به وعرفت بانها لغة الضاد، وكفى بالعربية فخراً شموليتها لمختلف

أحوال النطق، وبذلك يكون الحرف العربي جديراً بعناية الجماعة البشرية والمستحق لارتقاء الموضع الرئيس في محافل اللسان العالمي.

ثالثاً: شكل الحرف العربي يمتاز بخصائص جمالية وملامح فنية رائعة يندر وجودها في حرف آخر، فهو أجمل حروف الكتابة على الاطلاق وذلك لما يتمتع به من اتخاذ صور واشكال مختلفة بحسب موقعه من الكلم، فالخط العربي عدّه الكثير من علماء الجمال ضرباً من ضروب الفن الزخرفي الرائع الذي يصلح لأن تتشكل منه لوحات فنية زخرفية ابداعية.

وقد استطاع الخط العربي بخصائصه الابداعية وصورة رائعة ان يدخل رقعة واسعة من العالم فتخطى حدود بلاده ليصل الى بقاع الدنيا حتى أصبح موقع عناية غير المسلمين وخاصة الاوربيين فقد اكتشفت آثار الخط العربي في واجهات الكنائس والاديرة، فقد اتخذه الاوربيون منذ مئات السنين كعنصر مهم من عناصر الزينة والزخرفة.

رابعاً: من مميزات الحرف العربي ظاهرة الايماء المعنوي: فيوجد ترابط عضوي بين صورة الحرف والمعنى الدال عليه، وقد استطاع عدد من الخطاطين اظهار هذه الظاهرة المهمة في الحرف العربي وتوضيحها عن طريق لوحاتهم الفنية وخطوطهم الرائعة.

هذه هي أهم السمات العامة والمميزات المهمة التي امتاز بها الخط العربي.

المطلب السادس

الازدواج اللغوي والدعوة الى العامية

مظهراً آخر من مظاهر الصراع اللغوي الذي خاضته اللغة العربية يتمثل هذا المظهر بالدعوة الى استعمال اللغة العامية ودراستها جنباً الى جنب مع اللغة الفصحى بدعوى أن اللغة العربية الفصيحة فيها من الصعوبة ما فيها ويتعذر على العوام التفاهم والكلام بها.

وكما هو معروف للجميع فأن العرب والى حدود ١٥٠هـ تقريباً كانوا يتكلمون ويتفاهمون باللغة الفصيحة الخالية من الدخيل المبتذل، على الرغم من دخول غير العرب في صفوف الأمة العربية، ولكن بعد ١٥٠هـ واتساع دخول اللكنات والكلمات الأعجمية وظهر تأثيرها واضحاً في السنة العامة وبهذا دَبَّ الفساد في السنة العرب وذلك باختلاط العرب

بالاعاجم إثر الفتوحات الاسلامية وانتشار الاسلام، فتسربت على إثر هذا طائفة من الألفاظ والتراكيب الاعجمية الى اللغة الفصحى.

ويمثل القرن الرابع الهجري عهد ازدهار وانتشار للعامية حيث اصبح للعامّة اساليب لغوية تمتاز بها جرت على السنة الكتاب والشعراء الذين خضعوا واستجابوا لما ولدّته العامية من معانٍ جديدة للألفاظ العربية الفصيحة.

ولكن هل هذا يعني أنَّ الدعوة الى العامية تمتد الى ذلك التاريخ ؟ بالتأكيد الاجابة تكون ان شيئاً من ذلك لم يحدث في تلك الفترة فليس هناك دعوة الى العامية ولا أن من تدعو إليها أو تروج لها، ولكن ظهور الأساليب العامية وانتشارها بين الناس كان نتيجة طبيعية بسبب الاختلاط بالاقوام الاجنبية وبقيت اللغة الفصحى حيّة في نفوس أبنهائها شأنها في زماننا الحاضر.

وعلى هذا فالدعوة الى دراسة العامية واستعمال العامية بديلاً عن الفصحى ليست دعوة قديمة ولا تمتد الى تاريخ قديم بل إنَّ " الدعوة الى العامية واستبدالها بالعربية الفصحى لم تكن دعوة عريقة النسب، وإنّما هي حديثة العهد،... وهي ذات هوى خطير، وتسير وفق مخطط ماكر لها دعاة مسخرون لنشرها بين الناس، ولو بحثنا في طبيعة تلك الدعوة وأهدافها وفي خصائص دعاتها ونواياهم لوجدنا أنّها امتداد صارخ للحروب التي يشنها خصوم العروبة والاسلام منتهكين حرمة العربية مستهدفين تقويض دعائمها، ومن ثمة القضاء على جميع القيم والمآثر التي تحفظها هذه اللغة الكريمة لجماعة المتكلمين بها ".

وفي الحقيقة فإنَّ معظم الداعين الى العامية لا ينتمون أصلاً الى العربية وحتى العرب منهم فإن في جوهر أفكاره ومعتقداته وعواطفه غربيٌّ محض، ويأتي في مقدمة الداعين الى العامية المستشرق الالماني (سبيتا) فقد كان يعمل بدار الكتب المصرية وبعد مضي مدة من الزمن ونتيجة مخالطته للشعب المصري خرج على الناس بكتاب سماه (قواعد اللغة العامية في مصر)، ثم جاء بعد (سبيتا) يعقوب صروف صاحب صحيفة (المقتطف) فقد دعا الى نبذ الفصحى واتخاذ العامية بديلاً عنها. ولا ننسى (يعقوب صنوع) الذي يتفق قلباً وقالباً مع يعقوب صروف واستطاع إنشاء المسرح العاميّ واستطاع ان ينفذ الى قلوب الناس ويرسخ اهداف دعوته الى العامية.

ويمثل رفاعة الطهطاوي أحد دعاة العامية فقد كان أحد المنبهرين بثقافة وحضارة الغرب فقد اطلع على ثقافة وحضارة الشعب الفرنسي وعاد الى مصر ثائراً عن كثير من الأوضاع المتوارثة عند المصريين ودعا الى استعمال العامية غير أنَّ دعوته لم تلق اذناً سامعة مصيغة له.

وتتابع دعاة العامية المروجين لها ومنهم (وليام ويلككس) و (سلون ولمور) وأحمد لطفي السيد الذي كان له دور مهم في الدعوة الى العامية حيث ادعى ان اللغة العربية الفصيحة عاجزة عن تلبية المعاني الجديدة والمصطلحات الجديدة خاصة في مجال التعليم الغني بالمعاني والمصطلحات القديمة.

وسلامة موسى الذي يعد بلا منازع أكثر رؤوس الحقد على اللغة العربية وأكثر المروجين للدعوة الى العامية وأشدهم حقداً على اللغة الفصحى، ثم يأتي لويس عوض تلميذ سلامة موسى الذي بدأ هجومه على اللغة الفصحى والباغة العربية عندما عُيّن مستشاراً ثقافياً في صحيفة الاهرام وقد كشف الدكتور أنيس فريجة عن هويته ودعوته الى التخلي عن اللغة الفصحى يوم أن خرج على الناس بكتابه (نحو عربية ميسرة) مدعياً فيه كذباً وزوراً ان العربية الفصحى تمثل رمزاً للجمود والتخلف وهذا ما يرفضه التقدم العلمي المعاصر ولن تستطيع الشعوب العربية والامة العربية المسماة بالشعوب المتحضرة إلا بالتخلي عن العربية الفصحى واستبدالها باللغة العامية.

ثم نصل الى أشهر الدعاة الى العامية وأكثرهم نشاطاً في هذا المجال، ألا وهو سعيد عقل حيث سخر كل ما يملك في سبيل محاربة اللغة الفصحى، وقد ذكر الاستاذ محمد الكسار في كتابة (المفتاح لتعريب النحو) أنّه قد طرح على سعيد عقل سؤالاً مباشراً بعد أن جمع بينهما لقاء فسأله يا أستاذ سعيد هل أنت خصم للفصحى من حيث فصحى أم لأنك كالكثير من المثقفين العرب المتأثرين باراء وثقافة المستشرقين، الذين يشكون من جمود اللغة العربية وعجزها في هذا الزمان عن تلبية متطلبات التطور بسبب ما ينسب لعلومها المختلفة من التعقيد والغموض فأجاب جواباً متصفاً بالصراحة الوقحة: انني عدوّ للفصحى ذاتها، واعتبرها سبباً أساسياً لتخلف الشعوب الناطقة بالعربية بلا استثناء ثم اضاف بكل وقاحة أنا على يقين ان دعوتي الى الحرف اللاتيني واللهجات العامية سوف تنتصر لا محالة وستأخذ بها جميع الشعوب اسيا وافريقيا وعند

ذلك سأكون سبباً في النهوض بهذه الشعوب الغارقة في الجهل والتخلف الف سنة وسوف ترى ان هذا اليوم ليس ببعيد [١٥].

ومع كل هذه الدعوات الحاقدة على لغتنا الفصحى والداعية الى استعمال العامية غير اننا لنعجب أيّما عجب ان خصوم الفصحى يكتبون آراءهم بالفصحى فإذا كانوا يبغضون الفصحى فلماذا لا يكتبون آراءهم باللغة العامية التي يدعون اليها وينادون بها ويدافعون عنها.

وفي الحقيقة فإن الجواب الواضح لهذا العجب وهذا التساؤل هو أنهم عاجزون عن التعبير عن آرائهم وأفكارهم باللغة العامية لانها لغة مضطربة محصورة في إطار شري ضيق لا يصلح لتعبير الدقيق والانتشار على مستوى واحد من الفهم لذلك فأنهم بحاجة الى لغة تتحلى في الفاظها واساليبها والسعة والشمول وهذا لا يتوافر إلاّ في اللغة الفصحى التي هي أوسع لغات العالم انتشاراً ولساناً.

والملاحظ أنّ هذه الدعوات التي دعت اليها الجمعيات الاستشراقية والمستشرقون لم يكن الهدف منها إلاّ القضاء على العربية الفصحى، فهم لم يدخروا وسعاً في محاربة الفصحى وتوجيه سهام حقدهم نحوها ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين فهو سبحانه الذي تكفّل بحفظ العربية التي أنزل بها قرآنه فقال عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [١٦] بيد أنَّ هذا لا يعني ان لا ينهض ابناء العربية الغيارى يذودون عنها كل محاولات النيل منها دافعين كل سهام الحقد التي تُصوب وتُرسل نحوها لتبقى اللغة الإنسانية الأولى الخالدة التي اختصها الله سبحانه وتعالى لحمل رسالته الخاتمة الى كل البشرية لينعموا بالسلامة والامان والاسلام بلسن عربي مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم.

الخاتمة

بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث أُشير الى أهم النتائج التي توصلت اليها:

أولاً: مفهوم الصراع الذي خاضته العربية الفصحى إنما هو صراع ديني الهدف منه النيل من لغة القرآن الكريم لغة الدين الاسلامي الحنيف وشعائره السمحة ثم تحول الى صراع فكري ثقافي.

ثانياً: مفهوم الضعف يمثب نقيضاً وضداً لمفهوم القوة غير أن مفهوم ودلالة الضعف اللغوي تعني عدم الاتقان في مستوايت التخاطب، قراءة واستماعاً وكتابةً وحديثاً.

ثالثاً: كشف البحث أنَّ ظاهرة الضعف اللغوي لم تكن وليدة زماننا هذا بل هي قديمة فلها دلالات واشارات ترجع الى بدايات التأليف اللغوي في نهاية القرن الأول الهجري وكفانا دليلاً كتب لحن العامة او ما تلحن فيه العوام على قِدَم هذه الظاهرة.

رابعاً: كشف البحث أن اللغة العربية لم تكن لغة مستعمر غاصب ولا سلطان مستغل وانما هي لغة الفطرة والقلب والعقل بالاضافة الى ما امتازت به اللغة العربية من مميزات جعلتها تكسب الصراع اللغوي الذي خاضته مع من يحاول النيل منها.

خامساً: كشف البحث أنَّ القرن الرابع الهجري يمثل عهد ازدهار وانتشار للعامية حيث أصبح لها اساليب لغوية تمتاز بها جرت على ألسنة الكتاب والشعراء الذين خضعوا واستجابوا لما ولدّته العامية من معانٍ جديدة للألفاظ العربية الفصيحة، غير أنّ هذا لا يعني ان الدعوة الى العامية تمتد الى ذلك التاريخ بل العكس فإن شيئاً لم يحدث في تلك الفترة فليس هناك دعوة الى العامية ولا أنا تدعو اليها او تروج لها وظهور اساليبها انما هو نتيجة طبيعية لاختلاط العرب بالاقوام الاجنبية.

سادساً: الهدف من الدعوة الى العامية واستعمالها مكان اللغة الفصحى بدعوى انها عاجزة عن تلبية متطلبات التطور الحاصل في المجال العلمي والمصطلحات العلمية الحديثة انما هو امتداد للدعوات الاخرى التي تحاول النيل من اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم وتعاليم الاسلام السمحة فهو هدف ديني عقائدي ثم أخذ اشكالاً ثقافية وسياسية.

سابعاً: كشف البحث ان دعاة العامية والداعين اليها لم يستطيعوا ان يكتبوا آرائهم الا باللغة الفصحى التي تمتاز بالسعة والشمول وقدرتها على التعبير الدقيق والانتشار عن مستوى

واحد من الفهم، ولعلنا نعجب أنهم اذا كانوا يبغضون الفصحى فلماذا لا يكتبون آرائهم باللغة العامية التي يدعون اليها وما ذلك إلاّ لقصورها واضطرابها ولأنها محصورة في اطار بشري ضيق.

هوامش البحث ومصادره:

(١) وحي القلم: ٢٩/٣.
(٢) سورة الشعراء، الآية (١٩٢ – ١٩٥).
(٣) ينظر: الفصحى في مواجهة التحديات: ٩ – ١٠.
(٤) ينظر: لسان العرب (مادة ضعف).
(٥) تقويم اللسان: ١٥.
(٦) لسان العرب: مقدمة المعجم.
(٧) في الأدب الجاهلي: ١٩.
(٨) لغتنا والحياة: ٥٦.
(٩) في اللغة والأدب: ٥٠٣/٢.
(١٠) الفصحى لغة القرآن: ٣٠٦.
(١١) الفصحى في مواجهة التحديات: ٣٦.
(١٢) الفصحى في مواجهة التحديات: ٣٨-٣٩.
(١٣) ينظر: الفصحى في مواجهة التحديات: ٤٢ وما بعدها.
(١٤) المصدر نفسه: ٤٣.
(١٥) ينظر: الفصحى في مواجهة التحديات: ٩٣ وما بعدها.
(١٦) سورة الحجر الآية: ٩.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. تقويم اللسان، ابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥١٠) دار المعارف، القهرة، ١٩٦٦م.
٢. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، ط٤،الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٣. الفصحى في مواجهة التحديات، نذير محمد الكتبي، ط١، دار البشائر، بيروت – لبنان، ١٤١٢هـ /١٩٩١م.
٤. الفصحى لغة القرءن، انور الجندي، دار الكتاب اللباني، بيروت – لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر.
٥. في الادب الجاهلي، د. طه حسين، دار المحرر الادبي، ١٩٢٧م.
٦. في اللغة والادب دراسات وبحوث، د. محمود محمد الطناحي، دار الغرب الإسلامي.
٧. لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ) دار صادر، بيروت – لبنان، ١٩٥٥-١٩٥٦م.
٨. لغتنا والحياة، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
٩. وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢م.